وهل الإيمان إلا الحب ؟

٣٠

حب
الشهادة و الشهداء

الدكتور
محمد عمر الحاجي

رسوم إياد عيساوي

الطبعة الأولى
2006 - 1426

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

وَانْتَبَهَ النَّاسُ على أصواتِ البُكَاءِ مَعَ التَّكبيرِ.. مَعَ صَوْتِ سَيَّاراتِ الإسْعَافِ.. وَخَرَجَ (مُهْتَدِي) إلى شُرفَةِ البَيْتِ لِيَرَىٰ ماذا حَدَثَ؟

فَرَأَىٰ صَدِيْقَهُ الشَّابَّ (حَسَن) يَرْكُضُ بِاتِّجاهِ مَسْجِد الحَيِّ.

فَنَادَاهُ وَسَأَلَهُ: ماذا حَدَثَ يا حَسَن؟

فَأَجابَهُ وَهُوَ يُسْرِعُ الخُطَا: لَقَدِ اسْتُشْهِدَ صَدِيْقُنا (عُمرُ) فِي ساحَاتِ المَعْرَكَةِ وَقَدْ كَانَ يُقَاتِلُ في سَبِيلِ اللهِ تعالَى.

وصَاحَ (مُهْتَدِي): ماذا؟ عُمَر.. حَبِيبُنَا.. وصَدِيْقُنا. قَد مَات.. يا للهَول!!

وانطَلَق مُسْرِعاً بِاتِّجَاهِ مَصْدَرِ الصَّوتِ.

ولمَّا اقتربَ مِنَ السَّاحَةِ الرَّئِيسيَّةِ قُرْبَ المَسْجِدِ... وَوَجَدَ أَنَّ أَهلَ البَلْدَةِ مُجتَمِعِينَ - وكأَنَّهُمْ - خَرَجُوا عَنْ بكْرَةِ أَبِيْهِمْ... والتَفَتَ إلى وُجُوهِهِمْ... فَرَأَى الدُّمُوعَ تَسِيلُ على الخُدُودِ، وإذَا بِمُكَبِّراتِ المَآذِنُ تَصدَحُ بِآياتِ الذِّكْرِ الحَكِيمِ.

ثُمَّ اقتَرَبَ أَكْثَرَ فَرَأَى جَمِيعَ أَصْدِقَائِهِ يَنْتَظِرُونَ وُصُولَ جُثمانِ الشَّهِيدِ (عُمَر)!.

وَرَأَى كَذَلِكَ وَالدةَ عُمَر، ووَالِدَهُ، وَإِخْوتَهُ وَأَخواتِهِ!!

الشَّهَادَةُ فِي القُرآنِ الكَرِيمِ

وَبعدَ دَقائِقَ وَصَلَ مَوْكِبُ الشَّهِيدِ... حيثُ لُفَّ النَّعشُ بِالعَلَمِ، وحَملَهُ الشَّبابُ على الأَكُفِّ... وَمِنْ ثَمَّ وُضِعَ فِي ساحَةِ التَّحريرِ أمامَ

المَسْجِدِ.. وَصَعِدَ الشَّيخُ (يحيى) المِنصَّةَ التي أُعِدَّتْ لِتَأْبِينِ الشَّهيدِ، ونَظَرَ إلى النَّاسِ، ثُمَّ نَظَرَ إلى النَّعشِ وقالَ:

صَحيح أَنَّكُمْ تُشاهِدُونَ جُثْمَانَ الشَّهيدِ (عُمَر) فِي هذه السَّاحَةِ، لَكِنْ فِي الوَاقِعِ هُوَ الحَيُّ.. ، مِصْداقُ لكَ قَولهُ تَعالىٰ:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧١].

فَهَنِيئاً للشُّهَداءِ هَذهِ المَراتِب العَلِيَّة، وهذهِ الأَوْسِمَة الخَالِدَة، فمَا إنْ تَسْقُطِ الدِّماءُ الزَّكيَّةُ على الأَرضِ حتَّى يأْمُرَ اللهُ تَعالى المَلائكَةَ أَنْ تَمْحُو كلَّ ذُنُوبِهِم، مِصداقُ ذلكَ قولُه تعالى:

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾

[آل عمران: ١٩٥].

ذلِكَ لأنَّ اللهَ تَعالى وَعَدَ الشُّهَداءَ أَنْ يَمْنَحَهُمْ أَرْفَعَ الأَوْسِمَةِ؛ لِيَكُونوا فِي الجِنانِ مَعَ النَّبِيِّينَ، قالَ اللهُ تعالى:

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩].

وَبالتَّالِي ، فَالفَرقُ كَبيرٌ بينَ مَنْ يَتقاعَسُ عن الجِهادِ فِي سَبيلِ اللهِ ، وبَينَ مَنْ يَنْطَلِق إلى سَاحَةِ المَعْرَكَةِ ، فَكُلُّ الذينَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ

اللهِ فإنَّ اللهَ سَيُعْطِيهِمُ الأَجرَ، وسَيَغْفِرُ لَهُمْ ذُنُوبَهُمْ، ويَرحَمُهُمْ، مِصْدَاقُ ذلكَ قولهُ تَعالى:

﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٥ ـ ٩٦].

أَجَلْ!

إنَّها التِّجارَةُ الرَّابِحَةُ فَاللهُ يَشْتَرِي مِنَ الشُّهداءَ أَموالَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ ـ وَهِيَ مَتَاعٌ زائِلٌ بِزَوالِ الدُّنيا أَوْ بِزَوالِ حَياةِ الإنسانِ ـ مُقَابِلَ الخُلودِ فِي الجِنَانِ!!

قالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ

فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١].

والسَّببُ في ذلكَ كلّهُ أنَّ المُؤْمِنَ حينَ يَنْطلِقُ إلى المَعركَةِ ، فَأَمامَهُ خَيارَانِ اثْنانِ: إمَّا الشَّهادَة في سَبيلِ اللهِ ، وإمَّا النَّصْر مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وكِلاهُما خَيْرٌ وَبَرَكَةٌ ، ولذلكَ قالَ اللهُ تعالى:

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾

[التوبة: ٥٢]

وَبالمُقابِلِ ، فالذينَ يَتخلَّونَ عَنِ القِتالِ.. أوْ يَفرُّونَ مِنَ المَعركَةِ ، أولئكَ لهُم سُوءٌ في الدَّارَيْنِ

والآخرةِ ، مِصداقُ ذلكَ قولهُ تعالى:

﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [الأحزاب: ١٦ ـ ١٧].

فماذا عَنِ الشَّهادَةِ في تاريخِنا النَّاصِعِ؟!

وَصَعِدَ الأُسْتَاذُ (نُورُ الهُدَى) وَقالَ:

سلامٌ على رُوحِكَ الطَّاهِرَةِ أَيُّها الشَّهيدُ السَّعيدُ.. ثُمَّ التَفَتَ إلى النَّاسِ وقالَ: اعْلمُوا أيُّها الأحبَّةُ أنَّ شَهيدَنا (عُمَر) سارَ على طَريقِ الخُلودِ ، وَالذي خطَّهُ أجدادُنا المُسْلِمُون.

فذاكَ (عَليّ بن أبي طالب) حينَ طَعَنَهُ (ابنُ مُلْجم) وسَالَتِ الدِّماءُ الزَّكيَّةُ نَادَىٰ بِأَعلى صَوْتِهِ: فُزْتُ وَرَبِّ الكَعْبَةِ!!

وذَلِكُمْ (عَبْدُ اللهِ بنُ جَحْشٍ) وَقَفَ في معركةِ (أُحُد) وقالَ: اللَّهُمَّ إنِّي أُقْسِمُ عليكَ ، أَنْ ألقَى العَدوَّ غَداً ، فَيَقتُلُوني ثُمَّ يبقرُوا بطني وَيَجْدَعُوا أَنْفِي وأُذُنِي ، ثُمَّ تَسألنِي فِيمَ ذلكَ؟ فَأَقولُ: كانَ ذلكَ فِيكَ يا ربِّ.

وَذَلِكُمُ الرَّجُلُ الطَّاعِنُ فِي السِّنِّ (جُثيمَةُ أبو سَعْدٍ) يَأتي النَّبيَّ ﷺ يومَ أُحُدٍ وَيَرْجُوهُ أَنْ يَسْمَحَ لَهُ بِالقِتَالِ ، لِماذا؟

قالَ: يا رسولَ اللهِ! لَقَدْ أَخطأَتْنِي وَقعَةُ بَدرٍ وَقَدْ كُنْتُ عَلَيها حَرِيصاً ، لَقدْ بلغَ مِن حِرصي أَنْ ساهَمْتُ ابنِي فِي الخُروجِ فَخَرَجَ سَهْمُهُ فَرُزِقَ الشَّهادةَ ، وقَدْ كُنْتُ حريصاً على الشَّهادَةِ ، وقَدْ رأيتُ ابني البارحةَ فِي النَّومِ فِي أحسنِ صورةٍ يَسرَحُ فِي ثِمَارِ الجَنَّةِ وأَنهارها وهوَ يَقولُ: الحَقْ بِنَا تُرافِقْنا فِي

الجَنَّةِ ، فقَدْ وجَدْتُ ما وَعَدَنِي ربِّي حَقّاً ، وقد وَاللهِ يا رسولَ اللهِ أَصْبَحْتُ مُشْتَاقاً إلى مُرَافَقَتِهِ في الجنَّةِ ، وقدْ كَبُرَتْ سِنِّي ، ورقَّ عَظْمِي ، وأَحببتُ لِقاءَ رَبِّي ، فادْعُ اللهَ يا رَسُولَ الله أَنْ يرزقَنِي الشَّهادَةَ ومُرافَقَةَ سَعدٍ في الجَنَّةِ.

وَبالفِعلِ دَعَا لَهُ الرَّسولُ ﷺ ، فَقُتِلَ يَومَ أُحُد.. وَنَالَ الشَّهادة!!

وَذَلِكُمْ (عُميرُ بنُ الحُمَامِ) كانَ يَقِفُ في الصَّفِّ وَفِي يَدِهِ تَمْرَاتٌ يُرِيدُ أَكْلَهُنَّ ، ولكنَّهُ بعدَ أَنْ سَمِعَ كَلِماتِ رسولِ الله ﷺ وَهُوَ يَحضُّ على القِتالِ والثَّباتِ فِي المَعْرَكَةِ ، بَعْدَ أَنْ سَمِعَ ذلكَ ما كَانَ مِنْهُ إلاّ أَنْ قَذَفَ التَّمراتِ وقالَ:

بَخٍ بَخٍ فِيمَا بَيني وَبَينَ أَنْ أَدْخُلَ الجنَّةَ إلاّ أَنْ آكلَ هذهِ التَّمرات! وَحَمَلَ سَيْفَهُ وانطَلَقَ نَحْوَ المُشْرِكينَ وهوَ يقولُ:

١ ـ ركضاً إلى اللهِ بِغَيرِ زادِ
إلاّ التُّقَـــى وعَمَـــل المَعَـــادِ

٢ ـ والصَّبرُ فِي اللهِ على الجِهادِ
وكـــلّ زادٍ عـــرضَـــةُ النَفـــادِ
غَيرَ التُّقىٰ والبرِّ والرَّشَاد

فَهَنِيئـاً لـكَ يـا عُمَـر ، وهَنيئـاً لكـم أَهلَـهُ وأَصدِقاءَهُ وأحبابَهُ ، فقد سارَ على الدَربِ القَوِيمِ . وفازَ بِرِضَا اللهِ وجِنَانِهِ.

ومع كَلِمَةِ والِدِ الشَّهيدِ!!

وتقدَّمَ والدُ الشَّهيدِ.. ومَسَحَ دُمُوعَهُ وتَصبَّرَ ثُمَّ قالَ:

بِكُـلِّ تَسليـمٍ مُطْلَـقٍ للهِ نَـزِفُ إليكُـمْ خَبَـرَ استِشْهَادِ ولَدِنَا (عُمَرَ) وَقَدْ تَعَلَّمنا الآنَ ضبطَ أفراحِنَا وأحزانِنا بأُمورِ الشَّريعةِ الإسلاميَةِ

لِذلِكَ أقولُ ما قالَهُ الرَّسولُ ﷺ:

«إِنَّ العَينَ لَتَدْمَع ، وإِنَّ القَلْبَ لَيَحْزَنُ ، وإِنَّا على فِراقِكَ لَمَحْزُونُونَ ، ولكِنْ لا نَقولُ إلاّ ما يُرضِي ربَّنا: إِنّا للهِ وَإِنَّا إليهِ راجِعُون».

نَعَمْ ، لَقَدْ قدَّمَ الشَّهيدُ (عُمَر) أَغْلَى ما يَملكُ فالرُّوحُ أَغْلَى مِنَ المَالِ.. ، ومصداقُ ذلكَ ما قالَهُ الشَّاعرُ:

يَجُودُ بالنَّفْسِ إِنْ ضَنَّ الجَوادُ بِهَا
والجُودُ بِالنَّفْسِ أَقْصَى غايةِ الجُودِ

وَصَدَقَ الرَّسولُ ﷺ عِندَما قالَ: «رباطُ يومٍ وَلَيْلَةٍ خَيرٌ مِنْ صيامِ شَهْرٍ ، وإِنْ ماتَ جَرَىٰ عَليهِ عَملُهُ الذي كانَ يَعملهُ ، وأُجْرِيَ عليهِ رزقُهُ ، وأَمِن الفَتَّان».

وعِندَما سُئِلَ عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: أَيُّ النَّاسِ أَفْضَل؟

فقالَ: «رَجُلٌ يُجاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ بِمالِهِ ونَفْسِهِ».

فَقِيلَ: ثُمَّ مَنْ؟

قالَ: «مُؤْمِنٌ فِي شِعْبٍ مِنَ الشِّعابِ يَعبدُ اللهَ وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ».

ثُمَّ توجَّهَ والِدُ الشَّهيدِ نَحْوَ أصدِقائِهِ وقالَ ـ والدموعُ تسيلُ على وَجنتيهِ ـ: هذا هُوَ الطَّريقُ الصَّحيحُ.. لقد سَبَقَكُمْ إلى الجنَّةِ (عُمَر) فَهلاَّ عاهدتُمُ اللهَ على السَّيرِ وَرَاءَهُ؟

يا لَيتَنا كُنَّا مَعَكُم فنفوزَ فَوزاً عظيماً!!

وشقَّ الجُموعَ المُحْتَشِدَةَ شابٌّ يافِعٌ لَمْ يَتجَاوزِ الرَّابعةَ عَشرَةَ مِنْ عُمْرِهِ، ووَقَفَ أمامَ النَّاسِ وقالَ بِصَوْتٍ قَويٍّ: أيُّها الناسُ، أنا (عاطِفُ) وَأخِي الشَّهيدُ (عُمَر) وأنا سَأَنقُلُ لَكُم

بِشارَةً عَنْ فَمِ رسول الله ﷺ ، وكُنْتُ حَفِظتُها مِن أَخي الشَّهيدِ قَبْلَ أُسبوعٍ مِنِ استشهادِهِ ، وَهِيَ حَدِيثُ رسولِ الله ﷺ فِي صِفَةِ الشُّهَداءِ: «إِنَّ أَرواحَهُم فِي أَجوافِ طيرٍ خُضْرٍ ، وإِنَّها تَرِدُ الجَنَّةَ ، وتَأْكُلُ مِنْ ثِمارِها ، وتَسْرحُ حَيثُ شاءَتْ ، وتَأْوِي إلى قِنديل مِنْ ذَهَبٍ تَحْتَ العَرشِ ، فلمَّا رَأَوا طِيبَ مَسْكَنِهِمْ وَمَطْعَمِهِمْ ومَشْرَبِهِم؛ قالُوا: يا لَيْتَ قَوْمَنا يَعلمُونَ ما نَحْنُ فيهِ منَ النَّعِيمِ ، وما صَنَعَ اللهُ بِنَا كَيْ يَرْغَبُوا فِي الجِهادِ».

فَيَا أَيُّها الشَّهِيدُ السَّعيدُ... يا (عُمَر) الخَير ، ويا أَيُّها الشُّهداءُ والشُّرفاءُ ، لقَدْ عَلِمنا جميعاً ماذا أَعطاكُمُ اللهُ مِنْ نَعيمٍ ، ونسألُ اللهَ أَنْ يجعلكُمْ لنَا قُدْوَةً وَأُسْوَةً.. لِنَكُونَ خيرَ خَلَفٍ

لِخَيْرِ سَلَفٍ.. ويا ليتَنا كُنَّا مَعَكُمْ فَنَفوزَ فَوْزاً عَظِيماً...

وسَمِعَ النَّاسُ مِنْ طَرَفِ الجُموعِ المُحْتَشِدَةِ صَوتَ الزَّغارِيدِ.. وعَرَفُوا أَنَّها والِدَةُ الشَّهيدِ (عُمَر).. وَهكذا خُتِمَ الحَفْلُ بِقَوْلِهِ تَعالى:

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾

[الفجر: ٢٧ ـ ٣٠].

والحمدُ للهِ ربِّ العالمين